مجلس

ختم صحيح الإمام البخاري

رحمه الله تعالى

الجمعة 26 رمضان 1445 هـ

جامع الأمير سيف الدين طينال رحمه الله تعالى.

القارئ

ماجد الدرويش الطرابلسي الحنفي

عفا الله عن شيوخه ووالديه وعنه بلطفه الخفي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهب الفضل لعباده في البدء والختام، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد الموصوف بالبدر التمام، وعلى آله وأصحابه أقمار الإسلام، أما بعد:

باسمه تعالى نبدأ مجلس ختم صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة 256هـ، هذه الختمة بدأت بتاريخ 1 ذي القعدة من سنة 1437 هـ، الموافق له الرابع من شهر آب لسنة 2016م في قاعة جمعية مكارم الإخلاق الإسلامية، وبحضور سماحة المفتي الدكتور الشيخ مالك الشعار حفظه الله تعالى كبير علماء طرابلس، وتختم اليوم الجمعة 26 من رمضان لسنة 1445 هـ الموافق له الخامس من نيسان لعام 2024م وبحضوره.

ثماني سنوات استغرقت هذه الختمة لأسباب عدة، أهمها:

أننا نقرأ قراءة متأنية للفهم والتدبر، لا هذرمة، لأن مشايخنا رحمهم الله تعالى ما كانوا يحبذون قراءة الهذرمة، وفي مقدمتهم شيخنا الإمام العلامة المُحَدِّث عبد الفتاح أبو غدة، رحمه الله تعالى، فإنه كتب في ملحقات التحقيق على كتاب (الموقظة في علم مصطلح الحديث) للحافظ الذهبي (ت 748هـ) تعليقةً على مبحث: (آداب المُحَدِّث) حيث قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى منتقدا من يقرأ قراءة سريعة:

«وقد تَسمَّح الناسُ في هذه الأعصار – في القرن الثامن هجري – بالإسراع المذموم، الذي يَخفَى معه بعضُ الألفاظ. والسماعُ هكذا لا ميزة له على الإجازة، بل الإجازةُ صِدْقٌ. وقولُك: "سَمِعتُ – أو قرأتُ – هذا الجزءَ كلَّه" مع التَّمْتَمَةِ ودَمْجِ بعض الكلمات: كَذِب».

فعلق شيخنا رحمه الله تعالى على هذه الكلمة بقوله:

«رحم الله تعالى المؤلف الحافظ الذهبي ما أدق نظره وأصدق قوله في هذه القراءة التي تسمى بالعربية (الهَذرَمَة) ويقال: هذرم فلان: أسرع في كلامه، وقراءته، وهذرم القرآن: أسرع في قراءته لا يتدبرُ معانيه. وهذه حال قراءة الكتب الستة أو السبعة التي يقرأها الطلبة الدارسون في الهند وباكستان، في السنة الأخيرة من دراستهم، فترى القارئ منهم لا يلوي على كلمة ولا لفظ، همُّهُ إنهاءُ قراءة الصفحة ليبدأ غيرَها! فهو – ومثله زملاؤه السامعون – لا يعقل ما قرأ ولا يعقلون ما سمعوا! والغاية من هذه الهذرمة أن يمروا بالنظر السريع العاجل في هذه الكتب السبعة، في السنة النهائية، فيُعَدُّ

في دراستهم ومقروءاتهم: الكتُب السبعةُ، وأما الفهم والحفظ والتدبر للمعاني فبعيد عنهم إلا من رحم ربه. وخير من هذه القراءه مئةَ مرة: القراءةُ الهادئة الواعية، المسموعةُ بتمام الكلمات، المفهومةُ المعنى جملةً من عنوان الباب وألفاظ الخطاب، ولو قرأوا كتابين أو ثلاثة كتب في السنة، لأن الغاية من القراءة العلمُ بالمقروء.

وسبب آخر وهو أننا كنا نعقد مجلسا واحدا في الأسبوع لا يتعدى الساعة والنصف.

أما السبب الأكبر تأثيرا فهو **جائحة كورونا** التي منعتنا من عقد مجالس القراءة ثلاث سنوات متواليات. ولكن ولله الحمد استؤنف الخير، وها نحن اليوم نعقد مجلس الختم على العادة في مدينة طرابلس الشام وفي مسجد الأمير سيف الدين طينال.

لماذا مسجد طينال؟

عندما تمت طباعة صحيح الإمام البخاري؛ بأمر من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان الثاني رحمه الله تعالى، وكانت أول طبعة متقنة لصحيح البخاري، تم الانتهاء من طبعها كما جاء في آخر النسخة «في أوائل الربيعين سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة وألف (1313) من هجرة خاتم الرسل الكرام عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم السلام» بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية؛ يومها وُزِّعت بأمر من السلطان نسخ من الكتاب على بلاد المسلمين، ومنها طرابلس الشام، وعيّن لقراءته يومها فضيلة العلامة الفقيه المحدِّث الشيخ محيي الدين الخطيب المتوفى سنة (1372هـ) رحمه الله تعالى. وكانت المجالس تبدأ في شهر رجب وتنتهي في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان.

ثم انقطعت هذه المجالس بوفاة الشيخ محيي الدين، سوى مِن عقد مجلس للختم شكلي في الجمعة الأخيرة من رمضان يُقرأ فيه الباب الأخير من الصحيح، وتُلقى فيه القصائد والمدائح، حتى صار نوعا من الفولكلور أكثر منه مجلس قراءة.

واليوم، بفضل الله تعالى عاد المجلس إلى حقيقته، فقد تمت قراءة الصحيح كاملا مع الشرح المحتاج معه إلى فهم الأحاديث والأحكام من كتاب (**عمدة القاري شرح صحيح البخاري**) للحافظ بدر الدين العيني المتوفى سنة (855 هـ) رحمه الله تعالى. ووصلنا بفضل الله تعالى إلى الباب الأخير من كتاب التوحيد الذي هو الكتاب الأخير من صحيح البخاري.

وقبل أن نبدأ بقراءة المجلس الأخير نذكر اسم الكتاب كما وضعه مؤلفه وما تعلق به من فوائد:

معلوم أن المؤلفين كانوا يختارون لكتبهم أسماء تعبر عن مضمونها ومحتواها، فيكون العنوان دالا على ما في ثنايا الكتاب، والاسم الذي اختاره البخاري لكتابه تعبيرا عن موضمونه، هو:

(الجامعُ المُسنَدُ الصحيحُ المختصرُ من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننِهِ وأيامِه).

أما تسميته (**بالجامع**) فلأنه حوى جميع فنون العلم، من: حديث، وعقائد، وفقه، وسير، ورقائق، وكل ما يتعلق بالإنسان المكلف من أحكام في حالتي الحياة والمماة.

وقوله (**المسنَد**) لأنه أورد الأحاديث الأصول فيه مسندة.

وقوله (**الصحيح**) لأنه لم يذكر في أصول صحيحه إلا حديثا صح عنده.

وقوله (**المختصر**) لأنه اختار أحاديثه وانتقاها من ستمئة ألف حديث صحيح يحفظها، فهو لم يشترط إخراج كل الصحيح عنده، وهذا ما جعل العلماء يتكلمون في سبب اختياره، فحملوا ذلك على المذهب الذي ارتضاه لنفسه في الفروع والأصول، حتى قالوا: «فقه البخاري في تراجِم أبوابه».

قوله (**من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم**) أمور جمع أمر، وهو الشأن، وشؤون النبي صلى الله عليه وسلم هي سيرته لأنها التطبيقُ العملي لأحكام الإسلام. والمراد بها هنا الفرائض الشرعية التي مرجعها إلى بيانه صلى الله عليه وسلم. كما قال تعالى في آخر سورة الزخرف: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾، أي: ترجع الأمور، فيُفَصِّلُها ويَحكُمُ فيها. ويؤكد أن (**أموره**) صلى الله عليه وسلم هي بيان الفرائض التي حواها الإسلام على سبيل الفعل أو الترك، قول البخاري في تعريف الكتاب:

(**وسننه**)، فالسنة ما سنه النبي صلى الله عليه وسلم، والفرائض ما شرعه الله تعالى. فجمع الصحيح أحكام (الكتاب والسنة).

وقوله (**وأيامه**) أي المغازي والسير.

فالكتاب حوى كل هذه الأمور لذلك سمي بالجامع.

[فاصل إنشادي]

مجلس الختم

ونشرع الآن بقراءة الباب الأخير من صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى.

فأقول وبالله التوفيق:

أنبأنا شيخنا عبد الفتاح أبو غدة الحلبي الحنفي دفين البقيع المتوفى سنة (1417هـ) رحمه الله تعالى إجازة، عن شيخه الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي الحنفي دفين البقيع المتوفى (1369هـ) رحمه الله تعالى، عن شيخه محيي الدين الخطيب الطرابلسي الحنفي المتوفى سنة (1372هـ) رحمه الله تعالى، عن شيخه العلامة الكبير الشيخ محمود عبد الدايم الحسني المشهور بنشابة، الطرابلسي، الشافعي، المتوفى سنة (1308هـ) رحمه الله تعالى، عن شيخه العلامة مصطفى بن محمد المُبَلِّط الأزهري المتوفى سنة (1284هـ) رحمه الله تعالى، عن شيخه الأمير الكبير محمد بن محمد السنباوي المالكي الأزهري المتوفى سنة (1232هـ) رحمه الله تعالى، في أسانيده المثبتة في ثبته الشهير، إلى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة (256هـ) رحمه الله تعالى، في صحيحه.

فوائد إسنادية:

يلاحظ في هذا الإسناد بُعْدُ الوَفَيات بين الشيوخ وتلامذتهم، وهذا يعني علوا في الإسناد، فشيخنا أبو زاهد رحمه الله تعالى عُمِّر بعد شيخه الشلبي ثمانية وأربعين سنة، والشيخ عبد القادر الشلبي توفي قبل شيخه الخطيب بثلاث سنين، والشيخ الخطيب عُمِّر بعد شيخه محمود نشابة (64) أربعا وستين سنة، والشيخ نشابة عُمِّر بعد شيخه المُبَلط ثنتان وخمسون سنة. فهذا كله من علو الإسناد الذي كان المحدثون يرحلون لتحصيله ويفاخرون به.

قال البخاري رحمه الله تعالى: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: 47] ، وَأَنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَقَوْلَهُمْ يُوزَنُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «القُسْطَاسُ: العَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ» وَيُقَالُ: «القِسْطُ: مَصْدَرُ المُقْسِطِ وَهُوَ العَادِلُ، وَأَمَّا القَاسِطُ فَهُوَ الجَائِرُ».

7563 – قال البخاري: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ إِشْكَابَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ [ص:163] القَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ).

وهنا مسألة: بمناسبة قوله: «القسطاس العدل بالرومية»، فهل في القرآن ألفاظ غير عربية؟

هناك أقوال للعلماء، والتفصيل في ذلك ما نقله البرهان الزركشي في علوم القرآن عن الإمام المفسر ابن عطية، قال: «وَكَانَ لِلْعَرَبِ الْعَارِبَةِ [وهم القحطانيون، وقريش منه] الَّتِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ بَعْضُ مُخَالَطَةٍ لِسَائِرِ الألسن بتجارات، وبرحلتي قريش، وبسفر مسافرين، ... فَعَلَّقَتِ الْعَرَبُ بِهَذَا كُلِّهِ أَلْفَاظًا أَعْجَمِيَّةً غَيَّرَتْ بَعْضَهَا بِالنَّقْصِ مِنْ حُرُوفِهَا وَجَرَتْ فِي تَخْفِيفِ ثِقَلِ الْعُجْمَةِ وَاسْتَعْمَلَتْهَا فِي أَشْعَارِهَا وَمُحَاوَرَاتِهَا حَتَّى جَرَتْ مَجْرَى الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ وَوَقَعَ بِهَا الْبَيَانُ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، .. قَالَ: فَحَقِيقَةُ الْعِبَارَةِ عَنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَنَّهَا فِي الْأَصْلِ أَعْجَمِيَّةٌ لَكِنِ اسْتَعْمَلَتْهَا الْعَرَبُ وَعَرَّبَتْهَا فَهِيَ عَرَبِيَّةٌ بِهَذَا الْوَجْهِ..

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام اللغوي الإمام: «هَذِهِ الْأَحْرُفُ أُصُولُهَا أَعْجَمِيَّةٌ، .. ، إِلَّا أَنَّهَا سَقَطَتْ إِلَى الْعَرَبِ فَعَرَّبَتْهَا بِأَلْسِنَتِهَا وَحَوَّلَتْهَا عَنْ أَلْفَاظِ الْعَجَمِ إِلَى أَلْفَاظِهَا فَصَارَتْ عَرَبِيَّةً ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَقَدِ اخْتَلَطَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ».

شرح مختصر للحديث

قال الحافظ بدر الدين العيني الحنفي رحمه الله تعالى:

قال البخاري: باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَع الموازين القِسطَ ليوم القيامة﴾، أَي: هَذَا بَاب فِي قَول الله عز وَجل: (وَنَضَع الموازين بِالْقِسْطِ). (ليوم القيامة)، أَي: فِي يَوْمهَا، والموازين جمع ميزَان،.. ، أَي: نضع الموازين العادلات.

واستُشكل لفظ (موازين) لأنه ثمَّة ميزَانٌ وَاحِد يُوزن بِهِ الْحَسَنَات. وَأجِيب بِأَنَّهُ جمع بِاعْتِبَار الْعباد وأنواع الموزونات.

وهل الميزان حسي أم معنوي؟

قَالَ أهل السنَّة: إِنَّه جسم محسوس ذُو لِسَان وكفتين، وَالله تَعَالَى يَجْعَل الْأَعْمَال والأقوال كالأعيان موزونةً، أَو توزن صحفها،..، وَفَائِدَته إِظْهَارُ الْعدْل وَالْمُبَالغَةُ فِي الْإِنْصَاف والإلزام قطعا لأعذار العباد.

قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن يكون الجمع للتفخيم كما في قوله تعالى ﴿كذبت قومُ نوح المرسلين﴾ مع أنه لم يُرسَل إليهم إلا واحدٌ.

قال البخاري: «وَقَالَ مُجاهِدٌ: القُسْطاصُ: العَدْلُ بالرُّومِيَّةِ». أَي: قَالَ مُجَاهِد – بن جبر الإمام المفسِّر تلميذ جماعة من الصحابة، أخذ القرآن عرضا على ابن عباس يوقفه على كل آية يسأله عن معناها وفيم زلت وأين، توفي سنة

104هـ رحمه الله تعالى – فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وَهُوَ بِضَم الْقَاف وَكسرهَا الْعدْل بلغَة أهل الرّوم، هُوَ من توَافق اللغتين.

ذكر تراجم رجال السند:

أَحْمد بن إشكاب، الحافظ أبو عبد الله الحضرمي الكوفي الصفار، نزيل مصر، قال البخاري: آخر ما لقيته بمصر سنة سبع عشرة. وأرَّخ ابن حبان وفاته فيها، وقال ابن يونس: مات سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة – ومئتين. ورجح الذهبي الثاني. فيكون البخاري لقيه في سنة وفاته.

محمد بن فضيل بن غزوان، الامام، الصدوق، الحافظ، أبو عبد الرحمن الضبي. على تشيع كان فيه، إلا أنه كان من علماء الحديث، والكمال عزيز. وثقه يحيى بن معين. وقال أحمد بن حنبل، وهو من الآخذين عنه: هو حسن الحديث شيعي. مات في سنة (195) خمس وتسعين ومئة، وقيل: سنة أربع. قال الذهبي: وقد أحتج به أرباب الصحاح.

أما تشيعه فلم يكن على المذهب الخبيث الذي يطعن في الصحابة، وبخاصة الشيخين، وإنما كان تحرُّقا منه على من حارب أو نازع عليا الأمر، وهو معظم للشيخين، كما نقل الذهبي في ترجمته. وبهذا لا يبقى وجه لمن رد روايته بتهمة التشيع.

عمارة بن القعقاع بن شبرمة، الضبي، الكوفي. مكثر عن أبي زرعة البجلي. وثقه ابن معين وغيره. بل اتفقوا على توثيقه. توفي سنة (140هـ).

أبو زرعة بن عمرو البجلي الكوفي، قيل اسمه هَرِم، وقيل اسمه كنيته على الأشهر، وهو من ثقات التابعين. قال الذهبي: كان ثقة، نبيلا، شريفا، كثير العلم.

وأبو هريرة: أبو هريرة، والمعروف لا يُعَرَّف. توفي سنة (59هـ) رضي الله عنه.

فوائد إسنادية:

يلاحظ في هذا الإسناد أيضا العلو بالنظر إلى وفيات الشيوخ وتلامذتهم: فالبخاري عُمر بعد شيخه أحمد (38) ثمانية وثلاثين سنة، وشيخه عمر بعد شيخه محمد بن فضيل (23) ثلاثا وعشرين، ومحمد بن الفضيل عُمر بعد شيخه عمارة (55) خمسا وخمسين سنة. وكذلك عمارة عمر بعد شيخه أبي زرعة (49) تسعا وأربعين سنة. وبين أبي زرعة وشيخه أبي هريرة رضي الله عنه (32) اثنتان وثلاثون سنة.

تخريج الحديث

الحديث ليس له إلا طريق واحد هو مخرجه: محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة البجلي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومن هذا الطريق أخرجه الترمذي عن يوسف بن عيسى عن محمد بن فضيل به، وقال حديث حسن صحيح غريب.

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): وجه الغرابة فيه تفرد محمد بن فضيل وشيخه وشيخ شيخه وصحابيّه.

فيكون البخاري رحمه الله تعالى افتتح صحيحه بحديث غريب وختمه بحديث غريب. فهو افتتح صحيحه بحديث (النية) وهو حديثٌ تفرد به يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الأَنْصَارِيُّ، عن شيخه مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيّ، عن شيخه عَلْقَمَةَ ابْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيّ، عن أمير المؤمنين عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيكون وقع التفرد في أربع طبقات مع الصحابي، وكذلك الحديث الذي اختتم به كتابه اختار له طريقا وقع فيها التفرد في أربع طبقات مع الصحابي. فتفرد به محمد بن فضيل، عن شيخه عمارة بن القعقاع، عن شيخه أبي زرعة البجلي، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه لطيفة لم أجد من ذكرها من شراح الصحيح، ولله الحمد.

واللافت هنا أن الترمذي روى الحديث عن يوسف بن عيسى بن دينار المروزي المتوفى سنة (249هـ)، وهو أيضا شيخ للإمام البخاري، فقد روى عنه ستة أحاديث في صحيحه؟ فلم لم يرو هذا الحديث من طريقه؟ علما أنه أخرجه في موضع آخر عن شيخه قتيبة بن سعيد عن محمد بن فضيل به؟

السبب يعود إلى اختيار الإسناد العالي، فهو رواه من طريق أحمد بن إشكاب المتوفى سنة (218هـ)، فهو أقدم وفاة من يوسف بن عيسى المتوفى سنة (249هـ). وكذلك قتيبة بن سعيد فإنه متوفى سنة (240هـ).

والأمر الذي يلفت النظر أيضا أن قتيبة بن سعيد هو من شيوخ الترمذي، وقد روى عنه (22) اثنين وعشرين حديثا في سننه، لكنه لم يرو عنه هذا الحديث، وليس لهذا تأويل غير أنه لم يسمعه منه. وهذا من الأمانة العلمية عند الأئمة رضوان الله عليهم.

وهذا من النكت والفوائد الحديثية العزيزة التي يُكثر الأئمةَ تخريجها واختيارها لبيان هذه الفائدة العزيزة الغالية، وهي (علو الإسناد). وهي من المباحث الحديثية التي يجهلها كثيرون ممن يتكلمون في الأسانيد اليوم فيأتون بالمضحك المبكي، فمن ذلك مثلا ما ذكره الإمام الخطيب البغدادي في مقدمة كتابه (السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة راويين

عن شيخ واحد) الذي كتبه لأجل بيان فضيلة وفوائد علو الأسانيد، قال في مقدمته: «هَذَا كِتَابٌ ضَمَّنْتُهُ ذِكْرَ مَنِ اشْتَرَكَ فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُ مَنْ تَبَايَنِ وَقْتُ وَفَاتَيْهِمَا تَبَايُنًا شَدِيدًا وَتَأَخَّرَ مَوْتِ أَحَدِهِمَا عَنِ الآخَرِ تَأَخُّرًا بَعِيدًا، وَسَمَّيْتُهُ: كِتَابَ السَّابِقِ وَاللاحِقِ إِشَارَةً إِلَى لَحَاقِ الْمُتَأَخِّرِ بِالْمُتَقَدِّمِ فِي رِوَايَتِهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَعْدُودٍ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ وَطَبَقَتِهِ. وَقَدْ كَانَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَرْبِيُّ فِيمَا ذَكَرَ لَنَا عَنْه عَلِيُّ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْبَصْرِيُّ، يَقُولُ عَلَى سبيل الافتخار: لألحقن الصغار بالكبار، (حثنا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ).

وبيان ذلك: أن أبا الحسن الحربيَّ مُتَوَفَّى سنة (386هـ)، وهو آخر من حدَّث عن أحمد بن الحسن الصوفي المُتَوَفَّى سنة (306هـ)، وكان سماعه منه في سنة (303هـ)، أي قبل وفاته بثلاث سنين. والصوفي يروي عن مثل ابن مَعين، وعلي بن الجعد، والهيثم بن خارجة، ممن كانت وفاتهم في أوائل القرن الثالث الهجري. وهو متوفَّى في مطلع القرن الرابع، وقد تأخرت وفاة تلميذه الحربي إلى آخر القرن الرابع فعُمِّر بعد شيخه ثمانين سنة.

فلو أخذنا مثلاً رواية الصوفي عن ابن معين: فابن معين مُتوفَّى (233هـ)، والصوفي سنة (306هـ)، فيكون عُمِّر بعد شيخه ثلاثًا وسبعين سنة. والحربي عُمِّر بعد شيخه الصوفي ثمانين سنة، فيكون الصوفي واسطة عقد بين شيخين بين وفاتَيْهما (153) مئة وثلاث وخمسون سنة، وهذا هو المقصود من (السابق واللاحق)، ولذلك قال الخطيب البغدادي عنه إنه يجمع «بين فضل علو الإسناد في النفوس، وتوجه لذة حلاوته في القلوب».

كل هذه الفوائد الغالية للأسانيد العالية لم تلفت نظر محقق الكتاب الذي علَّق على جملة (حدَّثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار)، في الحاشية بقوله: «لم أجد معنىً لوجود هذه الجملة هنا، وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار شَيْخٌ لأبي الحسن علي بن عمر بن محمد الحربي المتقدم ذكره، فلعل في الكلام سقط والله أعلم» انتهى.

فلم يتفطّن للفائدة التي سيق الكلام لأجلها، وبالأخص الجملة الأخيرة التي لم يرَ لها معنىً مع أنها هي المعنى بعينه لقوله: لأُلْحِقَنَّ الصغار بالكبار، لسبب بسيط، وهو: أنه بعيد عن دقائق هذا العلم.

فأمثال هؤلاء الذين فاتهم أبجديات ومهمات علوم الحديث هم الذين يتصدون اليوم للكلام على علم الحديث وعلى أئمته، ويتناولونهم بالتجريح والتشريح، ويصححون ويضعفون، وهم في غفل عن أساسيات هذا الفن. فتسببوا بفوضى علمية كبيرة وجرؤوا الصغار على الكبار.

شرح مفردات الحديث:

قَوْله: (**كلمتان**) أَي: كلامان، وَتطلق الْكَلِمَة عَلَيْهِ كَمَا يُقَال: كلمة الشَّهَادَة.

قَوْله: (**حبيبتان**) أَي: محبوبتان، وَالْمرَاد محبوبية قائلهما، ومحبة الله للْعَبد إِرَادَة إِيصَال الْخَيْر إِلَيْهِ والتكريم.

قال العيني: القَصْد من الحَدِيث بَيَان سَعَة رَحْمَة الله تَعَالَى على عباده، حَيْثُ يجازي على الفِعْل القَلِيل بالثواب الْكثير.

قَوْله: (**سُبْحَانَ**) مصدر. قَالَ الزَّمَخْشَرِيّ: سُبْحَانَ عَلَمٌ للتسبيح كعثمان علم للرجل، .. ، وَمعنى التَّسْبِيح التَّنْزِيه، يَعْنِي: أنزه الله تَنْزِيها عَمَّا لَا يَلِيق بِهِ.

قَوْله: (**وَبِحَمْدِهِ**) الوَاو للْحَال، أَي: أسبحه ملتبسًا بحمدي لَهُ من أجل توفيقه لي للتسبيح وَنَحْوه. وَالْحَمْد هُوَ الثَّنَاء بالجميل على وَجه التَّفْضِيل، وتكرار التَّسْبِيح للإشعار بتنزيهه على الإِطْلَاق.

غاية الإمام البخاري من إيراد هذا الباب:

نقل الحافظ ابن حجر في الفتح كلام شيخه شَيْخِ الْإِسْلَامِ سِرَاجِ الدِّينِ الْبُلْقِينِيِّ فِي كَلَامِهِ عَلَى مُنَاسَبَةِ أَبْوَابِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، قال: «لَمَّا كَانَ أَصْلُ الْعِصْمَةِ أَوَّلًا وَآخِرًا هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ فَخَتَمَ بِكِتَابِ التَّوْحِيدِ.

وَكَانَ آخِرُ الْأُمُورِ الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا الْمُفْلِحُ مِنَ الْخَاسِرِ ثِقَلَ الْمَوَازِينِ وَخِفَّتَهَا فَجَعَلَهُ آخِرَ تَرَاجِمِ الْكِتَابِ، فَبَدَأَ بِحَدِيثِ (الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) وَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَخَتَمَ بِأَنَّ الْأَعْمَالَ تُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا يَثْقُلُ مِنْهَا مَا كَانَ بِالنِّيَّةِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ تَرْغِيبٌ وَتَخْفِيفٌ وَحَثٌّ عَلَى الذِّكْرِ الْمَذْكُورِ لِمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ لَهُ، وَالْخِفَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَمَلِ، وَالثِّقَلِ بِالنِّسْبَةِ لِإِظْهَارِ الثَّوَابِ.

وَجَاءَ تَرْتِيبُ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أُسْلُوبٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ: أَنَّ حُبَّ الرَّبِّ سَابِقٌ، وَذِكْرَ الْعَبْدِ وَخِفَّةَ الذِّكْرِ عَلَى لِسَانِهِ تَالٍ. ثُمَّ بَيَّنَ مَا فِيهِمَا مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ النَّافِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. انْتَهَى مُلَخَّصًا.

نقول عن العلماء في مناسبة هذا الحديث

قال الإمام الكشميري في (فيض الباري): «يريد – أي البخاري – أن أفعالَنا متميّزةٌ من القرآن غايةَ التمييز، حتَّى إن أفعالَهم يُنْصَبُ لها الميزان. وأمَّا القرآنُ، فمن يَزْعُمُ أنه يُوضَعُ له الميزان؟ فافترقا من كلِّ وجهٍ».

وقال: «ثم اعلم أن المصنِّفَ بدأ كتابه بمبدأ المبادي، وهو: الوحي، والنية، وخَتَم بغاية الغايات، وهو قوله: **(سبحانه الله، وبحمده، سبحان الله العظيم)**».

قلت: ولأجل هذه المسألة وضع البخاري كتابه (خلق أفعال العباد) الذي قرر فيه الفرق بين كلام الله تعالى الأزلي الذي هو صفة له سبحانه وبين تلاوة التالي للقرآن الكريم، فتلاوتنا من أفعالنا وأفعالنا مخلوقة، قال الله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ أما القرآن فهو كلام الله تعالى غير مخلوق، ولأجل تقرير هذه المسألة عقد كتاب التوحيد في صحيحه.

وقد أفصح عن هذا القصد الإمام القاضي ابن المُنَيِّر الإسكندراني (ت 683هـ) في كتابه (المتواري على أبواب البخاري)، عند الكلام على حديث: **(لَيْسَ منّا من لم يتغنّ بِالْقُرْآنِ وَزَاد غَيره: يجْهر بِهِ)**، قال: «وَإِنَّمَا قصد البُخَارِيّ – وَالله أعلم – الْإِشَارَة إِلَى النُّكْتَة الَّتِي كَانَت بِسَبَب محنته حَيْثُ قيل عَنهُ: إِنَّه قَالَ: "لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوق"، فَأَشَارَ بالترجمة إِلَى أن تِلَاوَة الْخلق تتصف بالسّر والجهر، وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي كَونهَا مخلوقة.

وَفِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وأسروا قَوْلكُم أَو اجهروا بِهِ﴾ ثمَّ قَوْله: ﴿أَلا يعلم من خلق﴾ تَنْبِيه على أَن قَوْلهم مَخْلُوق.

وَقَوله: ﴿وَلَا تجْهر بصلاتك﴾ يَعْنِي بِقِرَاءَتِك دلّ أَنَّهَا فعله.

وَقَوله: (وَمن لم يتغنّ بِالْقُرْآنِ) فأضاف التَّغَنِّي إِلَيْهِ، دلّ على أَن الْقِرَاءَة فعل الْقَارئ.

فهذا كله يشهد أنه أراد من أبواب كتاب التوحيد الرد على المعتزلة وأمثالهم من المبتدعة ممن زعم أن قراءة القارئ للقرآن ليست مخلوقة. والله أعلم.

فصل في

قراءة صحيح البخاري وختمه لدفع الْمَصَائِب وَحُصُولِ الْمَقَاصِد

قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة صاحب مختصر صحيح البخاري المعروف بمختصر ابن أبي جمرة وشرحه (بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها) المتوفى سنة (699هـ) رحمه الله تعالى: «قال لي من لقيت من العارفين عمن لقيه من السادة المقر لهم بالفضل أن صحيح البخاري ما قُرئ في شدَّة إلا فرجت، ولا رُكب به في مَركب إلا نَجت».

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثيرٍ رحمه الله تعالى: «وكتاب البخاري الصحيح يستسقى بقراءته الغمام، وأجمع على قبوله وصحة ما فيه أهل الإسلام».

وقال الشيخ عبد الحق الدهلوي في (أشعة اللمعات): قرأ كثير من المشائخ والعلماء الثقات صحيح البخاري لحصول المرادات، وكفاية المهمات، وقضاء الحاجات، ودفع البليات، وكشف الكربات، وصحة الأمراض، وشفاء المرضى، وعند المضائق والشدائد، فحصل مرادهم، وفازوا بمقاصدهم، ووجدوه كالترياق مجربا، وقد بلغ هذا المعنى عند علماء الحديث مرتبة الشهرة والاستفاضة».

نماذج تاريخية لقراءة صحيح البخاري في بلاد الشام

بنية النصر على الأعداء، أو الاستسقاء، أو رفع الوباء.

الأول: قراءته بنية النصر على الاعداء

بحيث تواكب قراءته خروج جيوش المسلمين لملاقاة العدو. ففي حوادث فتح عكا واستخلاصها من الفرنجة سنة (690 هـ) يذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى أن الفرنجة عمدوا إلى قتل من في عكا من تجار المسلمين، فتنادى أمراء بلاد الشام للانتقام، «وخرجت العامة والمتطوعة يَجْرُون في العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء، وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويداري، وَخَرَجَتِ الْعَسَاكِرُ بَيْنَ يَدَيْ نَائِبِ الشَّامِ، وَخَرَجَ هُوَ فِي آخِرِهِمْ، وَلَحِقَهُ صَاحِبُ حَمَاةَ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ، وَخَرَجَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَاتَّصَلَ بهم عسكر طرابلس، وركب الأشرف من الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بِعَسَاكِرِهِ

قَاصِدًا عَكَّا، فَتَوَافَتِ الْجُيُوشُ هُنَالِك» .. إلى أن قال: «واجتمع الناس بالجوامع لِقِرَاءَةِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، فَقَرَأَهُ الشَّيْخُ شَرَفُ الدِّينِ الفزاري، فحضر الْقُضَاةُ وَالْفُضَلَاءُ وَالْأَعْيَان».

والثاني قراءته بنية الاستسقاء

ففي حوادث سنة 704 هجري، يذكر الحافظ ابن كثير، رحمه الله تعالى، أن الشَّيخ جَمَالَ الدِّين المزي الحافظ، رحمه الله تعالى، وهو والد زوجته، قرأ فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب أَفْعَالِ الْعِبَادِ لِلْبُخَارِيِّ تَحْتَ قُبَّةِ النَّسْرِ بَعْدَ قِرَاءَةِ مِيعَادِ الْبُخَارِيِّ بِسَبَبِ الِاسْتِسْقَاءِ..

والثالث قراءته بنية رفع الوباء

ففي كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي، يذكر في حوادث سنة (748هـ)، وهي السنة التي ضرب فيها الوباء البلاد المصرية والشامية، فنودي «بدمشق باجتماع الناس بالجامع الأمويّ، فصاروا به جمعا كبيرا وقرءوا «صحيح البخاريّ» فى ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم خرج الناس كافّة بصبيانهم إلى المصلّى وكشفوا رءوسهم وضجّوا بالدعاء، وما زالوا على ذلك ثلاثة أيام فتناقص الوباء حتّى ذهب بالجملة».

والرابع: قراءته بنية تجنب الحروب الأهلية:

ففي (النجوم الزاهرة: 11 / 272) : في حوادث (784 هـ) حصلت فتن بين الأمراء المماليك في مصر بسبب التنافس على السلطة، وحصلت بينهم حروب وفتن بقيت سنين، حتى ضج الناس من ذلك، وتوسلوا للخروج منها قراءة صحيح البخاري. يقول ابن تغري بردي: «وفي يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة خطب للخليفة المتوكّل على الله أبي عبد الله محمد، فإنه أعيد إلى الخلافة من يوم خلع عليه السلطان خلعة الرّضا، ثمّ قرئ تقليده في ثانى عشره بالمشهد النّفيسيّ وحضره القضاة ونائب السلطنة.

ولما انقضى مجلس قراءة التقليد توجّهوا –هكذا– الجميع إلى الآثار النّبوية، وقرءوا به صحيح البخاريّ، ودعوا الله تعالى للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر وإخماد الفتنة بين الفريقين».

والحمد لله تعالى وحده في البدء وفي الختام، والحمد له سبحانه على ما أعان على الإتمام، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد البدر التمام، وعلى آله وأصحابه شموس الإسلام.

دعاء الختم

اللهم لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، سُبْحَانَكَ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ، نَحْمَدُكَ اللهم وَأَنْتَ بِالحَمْدِ أَوْلَى وَأَحَقُّ، وَنَشْكُرُكَ عَلَى مَا جَلَّ مِنْ نَعْمَائِكَ وَدَقَ، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنى، وَنَسْأَلُكَ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ وَكِفَايَةَ هَمِّهِمَا، اللهم آتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا. اللهم أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِنَا وَأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشُنَا وَأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادُنَا. اللهم اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وآمِنْ رَوْعَاتِنَا وأهلك أعداءنا. اللهم إنا نَسْأَلُكَ بِكُلِّ سَطْرٍ قَرَأْنَاهُ فِي الجَامِعِ الصَّحِيحِ أَنْ تُفَرِّجَ عن الإسلام والمسلمين، اللهم فرج عن أهلنا في غزة الأبية وفي فلسطين ما نزل بهم، اللهم انصرهم على عدوك وعدوهم، اللهم استر عوراتهم وآمن روعاتهم وأهلك أعداءهم.

اللهم أسألك بوجهك الكريم أن توصل ثواب هذه الختمة هدية خالصة إلى سيدنا رسول الله صلى عليه وسلم، ومن جنابه الكريم إلى مشايخنا الأماجد الذين كانوا سببا في سلوكنا سبيل السنة والتمسك بها، وأخص منهم:

شيخَنا الإمامَ الوليَّ الصالحَ، العلامة، المحدِّثَ، عبدَ الفتاح أبو غدة الحلبي الحنفي، أبا زاهد.

وشيخَنا العلامةَ، الأصوليَّ، الفقيه، الزاهدَ، محمود مصطفى عبود هرموش الطرابلسي الشافعي، أبا عبد الله.

وشيخنا محدِّث حلب الشهباء العلامة الفقيه محمد عنان غشيم الحلبي الشافعي، أبا النصر.

رحمهم الله تعالى رحمة واسعة، وبلَّ أجداثهم بوابل فضله وكرمه، وجمعنا بهم في مستهل رحمته. اللهم آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات.

والحمد لله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات